الوضع الصحي بالجزائر في أواخر العهد العثماني

مداخلة الأستاذ : بن جبور محمد - جامعة معسكر

1- إنتشار الأمراض والأوبئة:

لقد أجمعت الكتابات التاريخية أن الجزائر قد شهدت تدهورا اقتصاديا وتراجعا عمرانيا طيلة النصف الثاني من القرن السابع عشر (17مـ) والنصف الأول من القرن الثامن عشر (18مـ) بعد ذلك ساءت الأوضاع الإقتصادية وأقفرت الأرياف والمدن من سكانها وتكاثرت الأعراض والأوبئة الفتأكة مما أثر سلبا على حالة السكان الصحية والمعاشية وترك آثارا سيئة على أوضاعهم الإجتماعية[01].

إبتداءا من أواخر القرن الثامن عشر (18مـ) تراجع عدد سكان المدن وتناقص سكان الأرياف مما تسبب في ضعف القوة العسكرية [02] أدى هذا الوضع إلى تناقص عدد التجار وقدرة الحرفيين والصناع وانعدام الأيادي العاملة في ميدان الزراعة.

و تعود أسباب هذا التردي والتدهور الاجتماعي إلى انتقال العدوى وإنتشار الأمراض من الأقطار المجاورة بسبب صلة الجزائر ببلدان البحر الابيض المتوسط وانفتاحها على أقاليم السودان وعلاقتها التجارية مع أوربا وارتباطها الروحي بالمشرق الإسلامي[03].

مما ساعد على إنتشار هذه الأمراض وتفشيها في البلاد انتشار المستنقعات بالسهول الساحلية وحول المدن الكبرى.

وقد أحصى لنا سعد الله صيدلية واحدة كانت موجودة بمدينة الجزائر والجزائر قاطبة، وكانت تعتمد على الأعشاب الطبيعية. وكان الأتراك يعتمدون على أطباء أجانب، واعتمدت المؤسسة العسكرية على طبيب جراح كان يسمى باش جراح أما الجزائريون فكانوا يتداوون بالأعشاب، أو بالسحر والشعودة في مداواة المرض أو التمائم والأحجبة، والتقرب إلى الأولياء ومن بين هذه الأوبئة التي تفشت في أوساط المجتمع الجزائري :

الطاعون:لقد عد الطاعون من أخطر الأمراض التي عانى منها المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني، كما تعرضت إلى ضرباته الحادة كل العناصر الاجنبية المقيمة بالبلاد لقد تكرر ظهوره في شكل تواتر حلقات متعاقبة مع الأوبئة المستوطنة بالمنطقة تسببت في إنهيار ديمغرافي وأدت إلى تدهور الوضع الصحي الذي اثر بدوره سلبا على إقتصاديات البلاد تاركا تشوهات خطيرة في البيئة الإجتماعية[04].

لقد أضر الطاعون بالأوضاع الصحية للجزائر العثمانية وارتبط بالعوامل الأخرى التي أثرت على الوضع الصحي للسكان مثل الإضطربات الجوية والتقلبات المناخية وفترات الجفاف والفياضانات بالإضافة إلى إجتياح الجراد وما نتج عنه من الزلازل والحرائق وما نتج عنها من دمار وخراب للمباني[05].

و مما زاد الأحوال الصحية سوءا أن الحكام العثمانيين لم يهتموا بميدان الصحة ولم يعطوها الأهمية التي تستحقها فمن ذلك أنهم ولم يتخذوا أي إجراء وقائي ضد انتشار هذه الأمراض[06]، أما أماكن العلاج فكانت محصورة حول بعض المصحات والملاجيء مثل زنقة الهواء وملجأ الأمراض العقلية المخصص للأتراك بالإضافة إلى مارستانات[07] رجال الدين المسحيين التي كانت تنفق عليها الدول الأوربية[08] كما أن الباشاوات لم يهتموا بالجوانب الصحية من حهة ولم يفرضوا الحجر الصحي من جهة أخرى على الوافدين إلى الأيالة الجزائرية.

و الملاحظ أن الأوبئة كانت تتكرر كل عشرة أعوام أو خمسة عشر عاما وأنها في بعض الأحيان استمرت لبضع سنوات كما حدث خلال أعوام 1784-1798 كما مني القرن السابع عشر (17مـ) بانتشار الأوبئة في مختلف جهات البلاد مدة حوالي 39سنة أما القرن الثامن عشر (18مـ) فقد ظهرت أثناءه الأوبئة[09] من عام 1700م حتى عام 1799، ولقد أشارت بعض المصادر الفرنسية إلى عدة أنواع من الأمراض التي كانت منتشرة في الأيالة، كان في مقدمتها الطاعون، الكوليرا، التيفوس، الجذري، السل، ولقد تأصلت هذه الأمراض نظرا لانتشار المستنقعات بالمدن وانعدام القواعد الصحية، خاصة النقص الكبير في العقاقير، فالطاعون وحده كان يؤدي إلى هلاك من 300 إلى 400 نسمة في اليوم، فمن عام 1740م إلى عام 1743 م فتك بحوالي 10000 نسمة.

وبالنسبة لوباء عامي –1792 1798 فإنه أضر بجميع الجهات لاسيما وهران والجزائر وقسنطينة. وفي سنتي 1817-1818 انتشر الوباء في الجزائر وقضى على أكثر من 14000[45]. و هكذا اصبح وباء الطاعون[10] من مظاهر البيئة الجزائرية فتكرر ظهوره بها بإستمرار وقد كان مرتبطا بحركة الأسطول الجزائري وإحتكاكه الدائم بموانئ المشرق التي كانـ مصدرا لمختلف أوبئة الطاعون، حتى عدت الجزائر من مراكزه الدائمة وبيئاته المفضلة وهذا ما عبر عنه "بنزاك" « La Panzac » بقوله :وباء الطاعون من الظواهر المستمرة والدائمة في الجزائر العثمانية « peste est une constante de l'Algérie ottomane11] ». علما بأن الايالة كانت لها صلات وثيقة بالمناطق المجاورة التي كان يأتي منها الطلبة والحجاج والبحارة والتجار من تونس، طرابلس أو إفريقيا.

لقد اصبحت عدوى الطاعون تنتقل بسرعة في جميع جهات البلاد، ومسافة انتشاره قدرت بحوالي 200 إلى 400 كلم سنويا وقد يستغرق إنتقالها أحيانا أسابيع قليلة لإجتياح منطقة ما تبعا لشدته وللكثافة السكانية في المنطقة التي تتعرض له[12].
ومع بداية القرن السابع عشر ميلادي انتشر مرض الطاعون بسرعة مذهلة أضر كثيرا بالوضع الصحي للايالة الجزائرية أكثر من المناطق المجاورة، كتونس ومراكش.
ومع حلول القرن الثامن عشر (18مـ) فقد تكرر وباء الطاعون وبلغ مجموع السنوات التي انتشر خلالها الطاعون أثناء هذا القرن 63 سنة في مدينة الجزائر وحدها خاصة من 1717 إلى 1758م، حيث انتقل إلى مناطق بعيدة كالقالة وعنابة وقدرت نسبة الوفيات في مدينة الجزائر، سنة 1740م ما بين 200 و400 وفاة يوميا.
ومن عام 1778 إلى 1804، انتشر وباء الطاعون في جميع الجهات وكان شديد الوطأة على السكان حيث أدى إلى تراجع كبير لعدد سكان الايالة

و بين سنوات 1805-1815، زاد في حدته حدوث المجاعات التي تعتبر أثارها الديمغرافية أخطر من بعض الحروب التي عاشتها البشرية.

لقد كانت أوبئة القرنين السابع عشر (17مـ) والثامن عشر (18مـ) أكثر حدة وشدة من التي إجتاحت الجزائر أثناء القرن السادس عشر (16مـ)، إذ تشير العديد من التقارير العسكرية والمراسلات القنصلية إلى إستمرار "الوباء الفتاك" أو "الوباء الخطير جدا" [13]لفترات متعاقبة تناهز الواحدة منها 15 إلى 20 سنة وتعقبها عادة فترة خمود لا تتجاوز الست سنوات[14].

ب- الكوارث الطبيعية

1- الـــزلازل:
مع ازدياد وطأة وباء الطاعون وتفشيه في أرجاء الايالة الجزائرية، كانت تتعرض لسلسلة من الهزات الأرضية العنيفة والشديدة والتي تسببت في تخريب وتحطيم بعض المدن، واسفر عنها في أحيان كثيرة خسائر في الأرواح والممتلكات كزلزال مدينتي الجزائر والمدية سنة 1632، والذي فتك باغلب سكان مدينة الجزائر، وزلزال عام 1665 والذي صاحبه خسوف الشمس وتأثرت به حتى السواحل الأوربية بالإضافة إلى زلزال 1676.

أهم الزلازل:

لقد تعرضت السواحل الجزائرية إلى عدة زلازل عنيفة وقوية خلفت عددي القتلى وخسائر جسيمة فمنها.

1- زلزال 1716: الذي تخربت من جرائه مدن شرشال وبجاية ومدينة الجزائر وتكررت نتيجة هزات إرتدادية طيلة ايام الثالث (3) والخامس (5) والسادس والعشرين (26) من شهر فبراير وقد هلك من سكان الجزائر تحت الأنقاض ما لا يقل عن 20000 نسمة حسب بعض المصادر[15].
نظرا لاشتداد حدة الزلازل اضطر الاهالي للخروج إلى ضواحي المدن ومنها ضواحي مدينة الجزائر بعد أن تهدمت منازلهم، مما جعل الداي يصر على معاقبة اللصوص، والقضاء على أعمال الفوضى التي صاحبته هذه الزلازل ثم تكرر حدوث الزلازل بمدن مليانة وعنابة والجزائر أعوام 1723-1724 وتضـــــــــــررت شرشـــــــــــال مــــــــــــن جـــــــــــراء زلازل 1735.
2-زلزال 1755 :يقال عنه زلزال لشبونة[16] وهو زلزال قوي شمل الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط فلم يبق منزل لم يتأثر بحدثه في مدينة الجزائر، وقد أدى هذا الزلزال إلى إنقطاع المياه وتهدم الخبايا، وقد صاحبه ظهور الحرائق للبعض الأحياء وشيوع أعمال النهب والفوضى لمدة شهرين استمر فيهـــــــــــا تكـــــــــــرر الهـــــــــــزات الإرتداديـــــــــــة الارضـــــــــــية.

3-زلزال 1760 :كسابقيه كان شديدا وعنيفا خرب مدينة البليدة[17] واضر ضررا بالغا بمدينة الجزائر فاضطر السكان للبقاء في العراء.

4-زلزال 1790 :لقد ضرب هذا الزلزال مدينة وهران وأدى إلى هلاك أكثر من 5000 نسمة، وانقطاع المياه وتهديم المباني وكان دا فائدة على الجيش الجزائري الذي كان يحاصر المدينة تمهيدا لاسترجاعها من أيدي الإسبان[18]. ولقد اضر هذا الزلزال بالقدرات العسكرية الاسبانية التي كانت محصنة بالبرج الأحمر والمرسى الكبير، ومكنت الأتراك من دخول المدينة فيما بعد عام 1792م.

5-زلازل 1818 و1825:لقد تعددت الزلازل في الجزائر بحيث ضربت أغلب المدن الساحلية والمناطق القريبة من مدينة الجزائر، منها الزلازل الذي ضرب الأطلس البليدي وأدى إلى هدم الدور والمساكن وخراب مدينة البليدة[19] والذي دامت هزاته من 2 إلى 6 ماي 1825 وأسفرت عن هلاك أكثر من 7000 قتيل[20].
و قد تركت هذه الكوارث الطبيعية نتائج سلبية على الوضع الديمغرافي للبلاد وعلى الحالة الصحية، كما اثرت في نفسية الجزائريين وأدت بهم إلى النقمة من الحكام والثورة عليهم محملين إياهم أسباب المصائب والمعاناة.

2- الفيضانات والحرائق:لقد اعتبر الجزائريون الفياضانات والحرائق من أهم الآفات والكوراث التي أضرت بالجزائر خلال العهد العثماني، بحيث تسببت في حدوث مجاعات وإختفاء الأقوات وهلاك الكثير من السكان.

لقد ألف الجزائريون حدوث المجاعات إثر سنوات القحط والجفاف وفي أعقاب زحف الجراد الأمر الذي كان يؤدي إلى إنتشار الأمراض وتكاثر الأوبئة.

و من الفيضانات التي تعرضت لها الجزائر خلال فترة الدراسة تلك التي تميزت بفداحة خطرها وذلك خلال سنوات 1727-1731-1733-1734-1736-1740-1753-1755-1757-1791-1812-1816[21].
ومن نتائج هذه الفياضانات تضرر الحياة الاقتصادية، وتفشي الأمراض القاتلة وإتلاف المحاصل الزراعية وتدمير المباني، وتناقص عدد السكان، وقد تسببت هذه الكوارث في تذمر السكان نتيجة نقص الأقوات وغلاء أسعارها، وانعدام الأمن، وتدهور الأوضاع الاجتماعية والسياسية، وبقيت مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية غير مستغلة وتحول جزء من هذه الملكيات إلى مؤسسة الأوقاف[22].

3- الجراد والجفاف:

مع ازدياد حدة الزلازل وانتشار الفيضانات شهدت الايالة الجزائرية آفات أخرى تمثلت في غزو الجراد وإنتشار الجفاف مما أضر أيما ضرر بالجزائر إبان العهد العثماني إجتماعيا وصحيا وإقتصاديا وتسبب في إختفاء الأقوات وهلاك كثير من السكان.

وفيما يخص سنوات زحف الجراد فمن أكثرها ضرر خلال أعوام فترة الدراسة 1710-1716-1724-1725-1760-1778-1779-1780.
وبالنسبة للسنوات التي عرفت فيها البلاد إنتشار الجفاف فكانت في الفترات الممتدة من 1734 إلى 1737 ومن عام 1778 إلى 1779 وكذلك سنة 1800 وأعوام 1800-1807-1816-1819[23].
4- المجاعات:

عاشت الجزائر في أواخر العهد العثماني مجاعات انعكست آثارها سلبا على الوضع الإجتماعي والصحي والإقتصادي للبلاد منها مجاعة 1778 و1779م والتي قيل عنها أن الناس كانوا يموتون بالمئات في شوارع مدينتي الجزائر وقسنطينة[24] وكذلك الشأن بالنسبة لمجاعة 1787 و1789م التي كان من أسبابها الجراد مع الوباء ويمكن الاشارة إلى مجاعة 1794 التي اتسمت فيها الأوضاع

بالتردي والفوضى وغلاء الأسعار وغياب الأقوات[25]. أدت إلى انتشار الفوضى وانعدام الأمن وتفشي النهب وغلاء الأسعار ومات الناس جوعا، حيث ذكرت المصادر التاريخية أنه في عام 1756م، مات أكثر من 1656 نسمة في مدينة الجزائر وقسنطينة.

وفي النهاية يمكن أن نذكر أنه هناك بعض المحاولات التي قام بها بعض الحكام الأتراك للاهتمام بالوضع الصحي وتحسينه في الايالة الجزائرية كمحاولة صالح الباي عام 1787 م والتي أراد بها منع انتشار وباء الطاعون، فأقام حزاما صحيا على مدينة عنابة، ومحاولة الباي عثمان عام 1794 م، والمتمثلة في بناء مستشفى وإقامة حزام صحي وفرق الحجر على السفن، كما سعى إلى استراد القمح من أوروبا وتوزيعه على السكان مجانا، ومن بين إصلاحاته كذلك أنه قام بإلغاء الضرائب التي كانت مفروضة على الجزائريين.

الهوامش والمراجع:

[01] سعيدوني ناصر الدين، نفسه.

[02] أوجاق أو " الوجاق": تعني بالتركية في الأوساط الجزائرية موقع النار أو الموقد، وهو إسم تنظيمي مستعار للجيش الإنكشاري العثماني ولقد تمردوا على البشاوات في القرن السابع عشر (17مـ) واستولوا على السلطة الفعلية ولم يبق للباشوات سوى وجود رمزي كممثلين سامين للسلطان ولقد انتقلت هذه السلطة الفعلية إلى طائفة الرياس في أواخر القرن نفسه.

[03] انتقلت إلى الجزائر مختلف الأمراض كاكوليرا « Le Cholrea » والتيفوس « La Typhus » والجدري « La variolle » والطاعون « à maladie La bubons »

[04] سعيدوني ناصر الدين: المرجع السابق ص 124.

[05] القشاعي موساوي فلة: وباء الطاعون في الجزائر العثمانية، دوراته وسلم حدته وطرق انتقاله، مجلة دراسات إنسانية، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر، عدد 1 سنة 2001 ص 134.

[06] القشاعي موساوي فلة: المرجع السابق للمزيد من التفاصيل ينظر BOUBAKER Said : La Peste dans les pays du maghreb - attitudes face au fléau et impact sur les activités commerciales 16,18éme siècles In,R.H.M .éme année n° 79-80, mai 19952

نظر أيضا

Constantine 1791- El Kachai MOUSSAOUI Fella : Situation sanitaire et démographique du Beylik de - ottomanes sur la société et l'état dans 1837 In, les actes du 7éme symposium international d'études Témimi : pour la recherche scientifique et l'information le monde ottoman publications fondation .Septembre 1998 , zaghouan Tunisie

[07] لم يفرض نظام الحجز الصحي لا على السفن ولا على الأشخاص باستثناء محاولة صالح باي ،قسنطينة العام 1787 فرض حزام صحي حول عنابة ومنطقتها ليمنع إنتقال العدوى إلى مدينة قسنطينة.

[08] يقصد بها الأديرة، دير أو Monaster.

[09] سعيدوني ناصر الدين: المرجع السابق ص 125.[10] نفسه ص 126.

[11] نفسه ص 127.

[12] القشاعي موساوي فلة: وباء الطاعون في الجزائر العثمانية دوراته وسلم حدته وطرق إنتقاله، المرجع السابق ص 136

[13] Panzac Daniel : la peste dans l'empire ottoman 1700-1850, ed Peters leuven, 1985, P212.

[14] القشاعي موساوي فلة: المرجع السابق ص 138.

[15] El Kachai MOUSSAOUI Fella : OPCIT, P68.

[16] تشير إلى ذلك التعبيرات الآتية

- " نتج عن الوباء موت كثير حتى خلت المدن والقرى"

- " قحط عظيم ووباء مفرط"

- " وباء مات فيه خلق كثير"

- " مجاعة قحطت الجزائر قحطا عظيما"

- " وكـــــان الوبـــــاء وقـــــد إشـــــتعلت ناره.....وقـــــت الضـــــحى وصـــــل مايـــــة جنـــــازة..."
- " وبـــــاء هلـــــك فيـــــه مـــــن النـــــاس حتـــــى عجـــــزوا عـــــن دفـــــن أمـــــوات لهـــــم"
- " خلت الدور وعمرت القبور"

- " الطواعين المتتالية هي إستمرار للطاعون الأعظم وهي أقل فتاكة منه..."

- " وباء عظيم الحيوية الكبيرة أو القوية عام البروبو"

- " خلال طاعون 1786 أخلت البلاد وأفنت العباد"

- " القحط الشديد ومسغبة عامة"

- " الوباء جعل الناس يأكلون بعضهم بعضا"

- " عدد الموتى يزداد من يوم إلى آخر"

- " اثناء الطاعون الجارف خلت الديار والمنازل"

- كان يدفن في الحفرة الواحدة المائة من الناس"

القشاعي موساوي فلة، المرجع السابق ص 136.

ينظر مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، ص ص 144 –151، ينظرأيضا بلحميسي مولاي : الجزائر من خلال رحلات المغاربـــــــــة فـــــــــي العهـــــــــد العثمـــــــــاني، الجزائـــــــــر ش ون ت 1979 ص 39.

[17] BOUBAKER Said : La peste dans les pays du maghreb, OPCit P323

jusqu'au 1819 In xploration scientifique 1552 Berbrugger: un mémoire sur la peste en Algérie depuis ..1847 de l'Algérie , Paris imp Royale TII

[18] ســــــــــــعيدوني ناصــــــــــــر الــــــــــــدين: المرجــــــــــــع الســــــــــــابق ص 128.

[19] أهمها: Devoux: quelques tempêtes à Alger in R.A. T.15 1871, pp 339-352.

20] بسبب وقوع محوره بالقبر منها "لشبونة".

[21] حول زلزال البليدة، ينظر مذكرات أحمد الشريف الزهار، ص 155.

[22] بذل كل من حسان باشا (1563) ومحمد قوصة (1606) وشعبان الزناي (1686) والباي إبراهيم (1687) عدة محاولات لإنقاذ وهران والمرسى الكبير وتحريرها من الإسبان وتحمس حتى الكتاب والشعراء فالهبوا حماس الناس بأشعارهم وفي العام

1707 حشد الباشا محمد بكداش جيشا جرار به المدينتين للتحرير الأول سنة 1708 واستبشر الناس وفرحوا، ولكن الإسبان احتلوها مرة أخرى لمدة حوالي 60 عاما أخرى ثم عزمت الجزائر وصممت على إزالة الفرحة الإسبانية من جسمها وحشد الباي محمد بن عثمان الكبير قوات عسكرية كبيرة وأجبر الإسبان على الجلاء عنهما بصفة نهائية العام 1792.

[23] مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، المصدر السابق ص 155.

[24] سعيدوني ناصر الدين: ص129.،ينظر خريطة الزلازل في ملحق الدراسة

[25] سعيدوني ناصر الدين: المرجع السابق ص 129.